جامعة عربية مفتوحة .. لماذا الآن وكيف؟ (1-3)

بقلم: طلال بن عبد العزيز

تدور في ذهني مجموعة من الأسئلة، على مدى السنوات الأخيرة، لا تزال تبحث لها عن اجابة، والاجابة المطلوبة لن انفرد هنا بتقديمها، ولكنني ادعو المختصين في كل مجال، للادلاء بارائهم واجتهاداتهم حولها.

وأبرز الأسئلة التي تراودني، سؤال جوهري هو، هل نظامنا التعليمي الساري في البلاد العربية، نظام صالح ومتقدم وديمقراطي، يساعد أمتنا العربية على دخول القرن الحادي والعشرين، بعقول متفتحة وعلم غزير وشباب متعلم ومثقف؟

فان كانت الاجابة بنعم، فنحن بلا جدال نخدع انفسنا ونتعامى عن الواقع الراهن لنظامنا التعليمي العربي، ونصبح تماماً كالنعامة التي تدفن راسها في الرمال.

وان كانت الاجابة بلا النافية، فان السؤال المترتب عليها: هو وما العمل؟ كيف نحدث ثورة تعليمية تثقيفية تربوية في بلادنا، تسمح لها ولنا بالتواصل مع ثورة العلم والتكنولوجيا التي تجتاح العالم من شرقه الى غربه؟ كيف نستفيد من التجارب الناجحة التي خاضتها دول وامم وشعوب غيرنا، سواء تلك المتقدمة او حتى بعض الامم النامية، فقطعت مشواراً طويلاً في طريق التقدم بالعلم الحديث والتعليم المتقدم؟

ندرك جميعاً ان التعليم ليس جزيرة منفصلة عن حركة المجتمع، بل هو نظام عضوي داخل كل مجتمع يستمد منه مدخلاته ويرفده بمخرجات سرعان ما تصبح عوامل دفع جديدة في حركة تتابعية متصلة.

ولا شك فان هذه الحركة تتاثر بحركة المجتمع وتطوراته وتفاعلاته في ما بينه وبين نفسه من ناحية، وفي ما بينه وبين محيطه القريب والبعيد من جهة ثانية. وفي هذا الاطار فاننا نلاحظ باسى ان استجابة وطننا العربي للتحولات الكبرى التي شهدها العالم في قطاع حيوي كقطاع التعليم العالي - مثلاً - لم تكن متوافقة مع اهمية هذا القطاع، ولم تقترب من مستويات الاستجابة التي احدثت تغييراً ملموساً في قطاعات اخرى غير معنية مباشرة بالتنمية البشرية الشاملة والمستديمة.

وربما يكون هذا بالتحديد، احد ابرز الدوافع لاطلاقنا في الفترة الأخيرة، مبادرة انشاء جامعة عربية مفتوحة، تلبي ليس فقط احتياجات المجتمع العربي لنظام تعليم متقدم، ولكن ايضاً تهيئ المجتمع لاستباق التغييرات الكاسحة التي بدات تعمل عملها في العالم كله، مبشرة بحلول قرن جديد قوامه العلم المتقدم والتعليم المكثف والتكنولوجيا فائقة القدرة.

وحتى لا نبقى خارج حركة التاريخ، ويخدعنا واقعنا الراهن غير المبشر، يجب ان نمعن النظر ونتعمق التفكير في اساليب اللحاق بالعصر، ونعمل بجدية وروح علمية لاستيفاء متطلبات الواقع الجديد الذي يفرض نفسه علينا وعلى الآخرين، وان نوفر الأدوات التي تمكننا من الاستفادة بالمنجزات العصرية خصوصاً في مجال منظومة العلم والتعليم عبر ثورة التكنولوجيا الحديثة.

وكخطوة علمية في هذا الطريق أطلقنا دعوتنا لانشاء جامعة عربية مفتوحة، وهي دعوة ليست منفصلة قائمة بذاتها، ولا هي بنفس القدر، مجرد انعكاس لتفكير آني املته الظروف الضاغطة والأوضاع المتربة التي يعيشها التعليم العالي في الوطن العربي، بل ان الاهتمام بقمة الهرم التعليمي في الوطن العربي، جاء في سياق تطور منطقي لاهتمامنا بقاعدة المجتمع واساسه ونعني الطفل العربي، الذي اوليناه على مدى السنوات الماضية اهتماما خاصاً وتركيزا ملحوظا باعتبار ان واقع الطفل وحل مشكلاته وتنمية قدراته وفتح مستقبله هو قضيتنا الاولى.

ونحمد الله ان جهودنا في هذا المجال، بتعاون المخلصين من ابناء الامة العربية، اثمرت مشروعات وخططا طموحة لرعاية الطفل العربي من خلال برنامج الخليج العربي والمجلس العربي للطفولة والتنمية الذي بعد تاسيسه وانطلاق نجاحاته انتصارا مؤكدا لقضية هذا الطفل في حاضره ومستقبله. ولقد كانت هذه الرؤية الشاملة لمستقبل الطفل العربي، هي مدخلنا الواقعي لقضية توسيع قاعد التعليم العالي، وذلك لاننا نؤمن ان طفل اليوم الذي يخطو اولى خطواته في المراحل الأولى للتعليم، هو طالب الجامعة غدا، ومن ثم فهو مستقبل الأمة في كل حال.

وقبل ان نتوسع في اسباب ومبررات انشاء جامعة عربية مفتوحة، تقدم العلم الحديث بمناهجه المتقدمة واساليبه المتطورة لكل طالب علم، وقبل ان نقفز مباشرة الى النتائج، بدانا بالمقدمات المنطقية والعملية، فكانت خطوتنا بتشكيل لجنة تحضيرية ضمت خبراء ومتخصصين تربويين واكاديميين واداريين واقتصاديين من الدول العربية المختلفة، مثلما ضمت آخرين من دول اجنبية عديدة، كان لها السبق في انشاء جامعات مفتوحة شهيرة ومرموقة من بين اكثر من 800 جامعة مفتوحة في العالم اليوم.

وعلى مدى شهور عكفت هذه اللجنة على دراسة المشروع دراسة علمية ونظرية معا، وبلورت «رؤية» محددة للهدف من انشاء الجامعة العربية المفتوحة، واطار نشاطها وخطة اولية لعملها، واسس برامجها ومناهجها العلمية، واساليب تواصلها مع الطلاب، ونوعية الفئات الاجتماعية المستهدفة.

ويمكن القول ان هذه اللجنة تمكنت من بلورة مجموعة كبيرة من الافكار، واجابت بالتالي على الاسئلة المطروحة، التي كان في طليعتها السؤال المحوري، ما هي اهداف الجامعة العربية المفتوحة؟

وكان الجواب، هو اولاً اتاحة التعليم العالي لمن يرغب من ابناء الشعب، وثانياً اعادة تاهيل المعلمين، وثالثاً تقديم برامج التدريب اثناء العمل في شتى المهن، ورابعاً تقديم برامج تحويلية للمهن وذلك لمواجهة البطالة السافرة والمقنعة، واخيراً تقديم برامج تعليمية لخدمة قضية تطوير المجتمع.

وكان السؤال التالي مباشرة والمترتب على الأول، وهو ما هي نوعية المناهج والمقررات التي يمكن ان تقدمها الجامعة المفتوحة، غير تلك التي تقدمها الجامعات التقليدية؟ والاجابة هي ان الجامعة المفتوحة ستعمل على تقديم: اولاً مناهج للتدريب على المهن المختلفة خصوصاً تلك المطلوبة في سوق العمل، وثانياً مناهج تؤهل للحصول على الدرجة الجامعية، وثالثاً مناهج وبرامج لتعليم الكبار وتدريبهم وتطوير قدراتهم، ورابعاً مناهج لتعليم اللغات الاجنبية، وخامساً مناهج لتعليم الكومبيوتر والتقنيات الدقيقة.

اما السؤال المحوري الثالث، فهو هل ستكون الجامعة المفتوحة حكومية ام اهلية؟ وجاءت الاجابة القاطعة ان تتمتع هذه الجامعة باستقلالية كاملة، وان تكون اهلية غير حكومية، حتى تعمل في حرية بعيداً عن السيطرة البيروقراطية، وحتى لا تنتقل اليها عدوى الروتين السارية في الجامعات التقليدية القائمة، وان كان ذلك لا يمنع من وجهة نظرنا، ضرورة التنسيق بين مشروع هذه الجامعة المفتوحة وبين وزارات التعليم والجامعات التقليدية القائمة في الوطن العربي، لتبادل الآراء والخبرات والمصلحة المشتركة، مع الأخذ في الاعتبار ان الجامعة المفتوحة ليست بديلاً باي شكل من الأشكال للجامعات القائمة، وانما هي مكملة لها وتعمل في اطار آخر وفق رؤى وسياسات ومناهج ووسائل مختلفة لايصال العلم الحديث الى طالبيه حيثما كانوا، في منازلهم او اماكن عملهم.

وجاء السؤال الرابع، وهو عن نوعيه المناهج التي سوف تقدمها الجامعة المفتوحة، هل هي دراسات انسانية نظرية كالاداب والفنون والتاريخ والفلسفة والجغرافيا.. الخ، ام هي دراسات علمية عملية؟

وكان الجواب الحاسم، وهو ان على الجامعة المفتوحة ان تترك دراسة وتدريس الانسانيات للجامعات القائمة، وتعمل هي على تقديم الدراسات العلمية والتطبيقية والتكنولوجية المتطورة، اي علوم المستقبل، والتي تعرف الآن بأنها اساس التقدم وجوهر التطور في عالم يقوم على ثورة العلم والتكنولوجيا.

ويبقى السؤال الجوهري الخامس، وهو من اين وكيف ستمول الجامعة العربية المفتوحة؟

وجاء الجواب ان الأفضل ان يكون تمويلاً اهلياً من القطاع الخاص والمستثمرين، ومن التبرعات والوقفيات، اذ ان هذا المشروع بفضل استقلاليته يوفر للمستثمرين فرصة الربح المعقول من عائد مصروفات الطلاب ومن الادارة الاقتصادية الرشيدة والأمينة للمشروع، وفي الوقت نفسه يوفر للمتبرعين واهل الخير فرصة توجيه تبرعاتهم واوقافهم وجهة سديدة تخدم تطور المجتمع وتنمي قدراته وتعنى بشبابه وتبني مستقبله.

وفضلاً عن هذين المصدرين الرئيسيين للتمويل، وهما استثمارات القطاع الخاص وتبرعات اهل الخير، فان هناك مصدرين آخرين اولهما الرسوم التي يدفعها الطلاب التي ستقرر وفق التكلفة الحقيقية للدراسة، وثانيهما الدعم الذي سنلتزم بتقديمه للمشروع من برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الانمائية.

هكذا تبلورت الافكار الأساسية وتشكل الاطار العام لمشروع انشاء جامعة عربية مفتوحة، تتسع لما هو اكثر مما تقدمه الجامعات التقليدية القائمة، وتتعمق في ما هو ابعد من شكليات التعليم العالي وشهاداته النظرية، وتستشرف المستقبل بكل تطوراته العلمية والتعليمية الباهرة، في عالم سريع التغير، منفتح الزوايا، واسع الرؤية.

الآن نتعمق قليلا في مناقشة هذا المشروع الطموح وضروراته واهدافه، وحين نفعل ذلك فاننا نطالب المختصين بل والرأي العام بمختلف اتجاهاته، بالادلاء بالراي وتوسيع دائرة الحوار المفتوح والنقاش الموضوعي تعميقا للبحث الجاد والمشاركة الحرة الواسعة في تاسيس هذا المشروع القومي المهم.